

يونا ليس في مصر

كاتب هذا المقال المرحوم الدكتور وهيب كامل ، وقد سلمه إلى مجلة قبل وفاته بأسبوعين في يناير سنة ١٩٥٧ . والدكتور وهيب كامل معروف لقراء هذه المجلة . وقد كان لموته المفاجئ رنة أسف شديد في الأوساط العلمية .

تخرج الفقيه في كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٩ ، من قسم الدراسات إنقديمة وحصل منه على درجات الماجستير عام ١٩٤٢ ؛ ثم حصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه ببحث عنوانه The Sources of Plantine Comedy .

ونشر الفقيه كتباً وأبحاثاً عديدة منها - باللغة العربية - هيرودوت في مصر (دار المعارف ١٩٤٦) ، وديودور الصقلي في مصر (دار المعارف ١٩٤٧) ، وإسترابون في مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٣) ، وأميانوس ماركيانوس في مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٥) . كما نشر أبحاثاً ومقالات عديدة باللغة العربية والإنجليزية ، ظهر الكثير منها بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

والمجلة إذ تنشر لقرائنها هذا البحث ، تحيي ذكرى مؤلفه الفقيه الكريم وتسال الله له خير الجزاء بقدر ما قدم للعلم والمتعلمين .

كان يونا ليس أقذع شعراء الهجاء عند الرومان ولعله أبرز شاعر هجائي في العالمين القديم والحديث جميعاً . أخرج في القرن الثاني للميلاد ست عشرة قصيدة هجائية . أصدرها في خمس مجموعات على فترات متقاربة . ولا نعرف من سيرته إلا النذر اليسير نستنبطه من أبيات شعره التي تعتمد فيها أن يخفي ملامح شخصيته وراء ما يعالج من موضوعات . ولعل استخفاؤه هذا كان نتيجة للخوف مما يتصدى له الهجاءون عادة من بطش الأباطرة . أو لعله كان زهداً في التحدث عن نفسه الجزئية وظروفه القاسية ، أو لعله كان ، موضوعياً ، يؤثر إبراز الموضوع الذي يتناوله ويفرض على ذات نفسه أن تتوارى فلا تلوح من خلال ما يصور من مخازي المجتمع الذي يهجوّه .

وتضم المجموعة الأولى القصائد من ١ - ٥ . وقد وردت في القصيدة

الأولى إشارة إلى نفي ماريوس پريسكوس^(١) . الذى لم تنته محاكمته إلا سنة ١٠٠ ب . م . فلا بد أن تكون هذه المجموعة قد صدرت بعد هذا التاريخ . وثمة إشارة أخرى ، وردت فى القصيدة الثانية ، إلى حملات الإمبراطور أوتولى أنها « تستحق أن تسجل فى الحوليات الجديدة والتاريخ الحديث^(٢) » وقد وصف المؤرخ تاكيثوس هذه الحملات فى « تاريخه » الذى صدر فيما بين ١٠٤ و ١٠٩ ولعله أشار إليها أيضاً فى حولياته وقد كان متوفراً على إصدارها حوالى ١٠٩ . فالأرجح أن تكون هذه المجموعة قد صدرت حوالى سنة ١١٠ .

والجموعة الثانية قاصرة على القصيدة السادسة وهى كبرى قصائده . وفيها إشارة إلى زلزال فى الشرق^(٣) ؛ فقد حدث زلزال فى أنطاكية فى ديسمبر سنة ١١٥ . ولا بد أنه كان مادة للحديث فى روما فى السنة التالية . فالأرجح أن يكون هذا الكتاب قد صدر سنة ١١٦ .

وتضم المجموعة الثالثة القصائد ٧ - ٩ . وقد أعلن الشاعر فى أولها « أن الأمل فى الأدب والدراسات الأدبية يتوقف على قيصر لأنه « وحده يحترم ربات الفنون وهن فى هذا العصر حزينات^(٤) » . وهى تحية لعل الشاعر قد استقبل بها عهداً جديداً لإمبراطور جديد يرعى الفنون ويعين الفنانين . وأخرى بهذا الإمبراطور الجديد أن يكون أديانوس وقد دخل روما سنة ١١٨ هـ وتضم المجموعة الرابعة القصائد ١٠ - ١٢ وليس فيه من الإشارات ما يعين على جلاء سيرة الشاعر .

وتضم المجموعة الخامسة القصائد ١٣ - ١٦ . وقد كتبت القصيدة ١٣

(١) ١ - ٤٩ - ٥٠ « إن ماريوس فى منفى يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ، ويرتع فى غضب السماء ، أما أنت أيها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين » . وقد طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس پريسكوس فأدين بتهمة الرشوة وسوء الإدارة ونفى . وقد ورد وصف المحاكمة فى رسائل بلينيوس (المجموعة الثانية ، الرسالة ١١ ، ١٢)

(٢) ٢ - ١٠٢ - ٣ .

(٣) ٦ - ٤١١ « إن المدن تهتز ، والأرض تغوص » . راجع فى تاريخ الزلازل « حرب تريانوس البارثية » تأليف ف . أ . ليپر . اكسفورد ١٩٤٨ ص ٩٥ وما بعدها .

(٤) ٧ - ١ - ٣ .

فى سنة ١٢٧. ذلك أن الشاعر يواسى فيها بعض أصدقائه وقد وقع فريسة للاحتيال فيخاطبه بقوله :

« وهل تعجب أنت مما حدث وقد جاوزت الستين إذ ولدت فى عهد قنصلية فونتيوس؟ » (١) وقد كان فونتيوس قنصلاً سنة ٦٧. ثم إن الشاعر يصف فى قصيدته ١٥ حادثة وقعت فى مصر فيقول « وقعت حديثاً فى عهد قنصلية يونكوس » (٢) وقد كان يونكوس قنصلاً سنة ١٢٧. ثم أن الشاعر فى قصيدته ١٤ يعنى على الرومان تهودهم وتحتهم (٣). وقد قام اليهود سنة ١٣١ بثورة عارمة من أسبابها أن الإمبراطور أديانوس قد أصدر أمره بمنع الختان. فلا بد أن تكون القصيدة قد كتبت قبل صدور هذا الأمر الإمبراطورى الذى جعل التختن عملاً غير مشروع. وإذن فقد صدرت المجموعة الخامسة فيما بين ١٢٧، ١٣١.

وإذن فقد كان نشاطه الأدبى واقعاً فى عهدى الإمبراطورين ترايانوس (٩٨ - ١١٧) وهادريانوس (١١٧ - ١٣٨) ولعله لم يمتد إلى آخر حكم هادريانوس.

وفى شعره إشارات طفيفة أخرى إلى حياته. فهو يتحدث فى قصيدته ١١ عن نفسه باعتباره رجلاً مسناً (٤)، وقد صدرت هذه القصيدة ضمن المجموعة التى نشرت فيما بين ١١٨، ١٣٠ فأحرى بنا أن نضع ميلاده بين سنة ٦٠، ٧٠ ميلادية.

وهو يتحدث عن مصر فى قصيدته ١٥ ويقول « كما لاحظت بنفسى » (٥) وهى إشارة إلى زيارته لمصر وإقامته بين أهلها (٦).

(١) ١٣، ١٦ - ١٧ (٢) ٢٧، ١٥

(٣) ١٤، ٩٦ - ١٠٦. (٤) ١١، ٢٠٣

(٥) ١٥، ٤٥

(٦) راجع J. Wright Duff فى A Literary History of Rome in the Silver Age

الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٥ ص ٦٠٢ هامش ٢١١ حيث يقرر أن قوله « كما لاحظت بنفسى » ليس دليلاً ملزماً على زيارته لمصر.

ولما لنعلم أن يونانليس كان مقبياً في روما حوالى سنة ٩١ ، ٩٢ لأن صديقه الشاعر مارشاليس قد كتب إليه في ذلك الحين رسالتين^(١) .
وهناك سيرة قديمة تعزى أحياناً إلى المؤرخ سيوتونيوس ولكنها على التحقيق متأخرة عنه^(٢) ، وهى تقول^(٣) «يونيوس يونانليس : ليس من المحقق إن كان ابن أو ربيب عتيق ثرى . مارس الخطابة إلى منتصف عمره تقريباً لإرضاء لنزعه لا استعداداً لتعاطى الفلسفة أو الحمامة . وبعد أن كتب قصيدة هجائية من أبيات قليلة وإن كانت مرضية ضد الممثل باريس وضد شاعر آخر ازدهاه أنه حظى بوظيفة حربية لمدة ستة أشهر فحسب ، توفر في إمعان على كتابة هذا الضرب من الشعر . ومع أنه ظل مدة طويلة لا يجرؤ على إلقاء شعره حتى في المحافل الصغيرة ، فإنه سرعان ما سُمع في المحافل الغاصة بنجاح عظيم مثني وثلاث . حتى أنه كان يضيف أبيات جديدة إلى القصائد التى كان قد صاغها من قبل .

« إن ما لا يمنحه العظماء سوف يمنحه ممثل . فلماذا تزور دور النبلاء العظيمة من الكاميرين والبارين ؟ إن بيلوپيا هى التى تعين القادة وفيلوميلأ هى التى تعين الطرابنة » .

وكان المثل محل رضا في هذا الحين في البلاط وكان يرقى يومياً الكثيرين ممن يتملقونه ، ومن ثم فقد اتهم يونانليس بأنه كان يشير تلميحاً إلى هذا الذى يجرى في البلاط . وبالرغم من أنه كان في الثمانين من عمره يومئذ فقد نفى عن المدينة في وظيفة حربية وأرسل قائداً اكتبية في طريقها إلى أقصى حدود مصر . ولقد اختير له هذا الضرب من العقوبة لأنه يناسب ما اقترف من جرم هين عابث . والحق أنه مات بعد وقت قصير جداً من الحزن والمضض .

(١) مارشاليس ، ٧ ، ٢٤ و ٧ ، ٩١ .

(٢) كتب سيوتونيوس كتابه سنة ١١٤ وقد عاش يونانليس إلى ما بعد ١٢٧ فلا بد أن تكون سيرته هذه بقلم متأخر عن سيوتونيوس .

(٣) راجع نص هذه السيرة في J. E. B. Mayer "Thirteen Satires of Juvenal" سنة ١٨٧٨ الجزء الثانى المقدمة صفحة ١١ وفى كتاب G.G. Ramsay "Juvenal and Persius" سنة ١٩٤٠ . المقدمة صفحة ١٧ .

وهناك ثمان سير وشروح أخرى كلها أحدثت من هذه السيرة عهداً ،
وهي تتضارب تضارباً يحططنا على الأخذ بها بحذر شديد . فمنها ما يذهب إلى
أن نفيه كان إلى بريطانيا *contra Scotos* وهي متأثرة ولا شك بدقة وصفه
لبعض أرجاء الجزائر البريطانية^(١) . ومنها ما تذهب إلى أن نفيه كان في
عهد الإمبراطور نيرون^(٢) (٥٤ - ٦٨) وهو خطأ ظاهر لأن يوتاليس
كان لا يزال في قيد الحياة سنة ١٢٧ . ومصدر هذا الخطأ أنه كان هناك
مثلان يسميان باريس ، وقد خلط الشراح بينهما أما أحدهما فقد قتل في عهد
نيرون وأما الآخر فقد لاقى المصير نفسه في عهد الإمبراطور دوميتيانوس
(٨١ - ٩٦) ، فكان الأولى بالشرح أن يصرفوا الكلام الوارد في القصيدة
السابعة إلى ثانيهما دون الأول . ومع ذلك فالظاهر أن دوميتيانوس - على
شدة مقت الشاعر له^(٣) - لم يكن مسئولاً عن نفيه ، لأن مارشاليس كان
يراسل يوتاليس في روما سنة ٩١ وأخوها ، ولم يكن مارشاليس من استقلال
الرأى وقوة الشخصية بحيث يراسل صديقاً وقع تحت طائلة سخط الإمبراطور
هذا ولم تقل « السيرة » إن الممثل المهبج كان محل رضا البلاط ، بل قالت
إن ممثلاً كان في ذلك الحين أثيراً لدى البلاط . وكان الممثل باريس قد اتهم
في علاقته بزوجة الإمبراطور دوميتيانوس فاغتاله سنة ٨٣ . وليس من
الجانح أن الشاعر نفى في ذلك العهد البعيد . ومن هنا ذهب رامساي Ramsay
إلى أن كل المحاولات التي تهدف إلى وضع نفى الشاعر في عهد الإمبراطور
دوميتيانوس قد باءت بالفشل^(٤) وأن الأرجح أنه حدث في عهد الإمبراطور

(١) راجع Duff « المصدر نفسه » صفحة ٦٠٠

(٢) راجع الشرح على البيت ٩٢ من القصيدة السابعة . *Propfer hunc versum*

missus est in exilio a Claudio Nerone.

(٣) إن كره يوتاليس للإمبراطور دوميتيانوس مستفيض . انظر ٢ ، ٢٩ - ٣٣ ،

و ٤ ، ٣٧ - ٣٨ ؛ ٦٩ - ٧١ ؛ ٧٢ - ١٠٣ ؛ ١٠٤ - ١٥٤ .

(٤) المصدر نفسه . المقدمة صفحة ١٩ .

اهدريانوس لأنه كان من رعاة الممثلين والفنانين من جميع الأنواع وأنه كان قميناً أن يثور لإهانة يتوهمها موجهة ضد أحد أخصائمه (١)

ويرى هايت (٢) أنه بالرغم من أن الممثل باريس قد اغتيل سنة ٨٣ فمن الممكن أن يكون يوناليس قد كتب سنة ٩٢ هجاء لأحد أحلاس البلاط ممن يتمتعون بنفوذ فيه أقوى من نفوذ النبلاء وخصوصاً فيما يتعلق بالترقيات العسكرية ، فرأى فيه الإمبراطور عيباً في ذاته الإمبراطورية وتعريضاً بنزاهة الحكم فنفاه .. والحق أن هذا التفسير لا يعدو أن يكون فرضاً لا يعززه إلا أن الشاعر كان شديد المقت للدوميتيانوس وإلى أنه جاء مصر ..

فلو صح أن الشاعر قد نفي لسبب أو لآخر حول هذا التاريخ فأين كان منفاه ؟ إن كتاب السير (والشرح) يختلفون في هذا كل الاختلاف فمنهم من يزعم أنه نفي في ليبيا (٣) ومنهم من يزعم أنه نفي في «واحة» وهم يعنون الواحة الخارجة (٤) .. ولكن منشأ القول بنفي الشاعر هو السيرة التي نقلناها . فأولى بنا أن نتبعها وهي تقول إنه نفي إلى «أقصى حدود مصر» وهي تعني على الأغلب أسوان وقد كانت مركز ثلاث كتائب رومانية في ذلك العهد (٥)

(١) المصدر نفسه المقدمة صفحة ٢١

(٢) Juvenal The Satirist: G. Highet اكسفورد سنة ١٩٥٤ صفحة ٢٥

(٣) راجع chronographia. Joannes Malalas ١٠ ، ٣٤١ ، وقد ورد النص في Mayor . المصدر نفسه صفحة ١٢ ، وفي Highet المصدر نفسه صفحة ٢٣٩ . ويلاحظ . أن هذه المنطقة كانت إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس تابعة لولاية كويت وقورينة . فلم تكن إذن في مصر .

(٤) راجع الشارح على البيت الأول من القصيدة الأولى حيث يقول :

hos autem libros in exilium missus ad civitatem ultimam Aegypti
Hossim ab ipso Domitiano scripsit

وراجع الشارح أيضاً على البيت ٣٨ من القصيدة الرابعة حيث يقول :

propterea quod Juvenalis sub specie bonoris relegtus est ad cohortis
curam in Aegypto Hoesa, ubi mortuus est.

(٥) راجع L'Année romain d'Égypte J. Lesquier سنة ١٩١٨ صفحات

ويعزز هذا الرأى ما يبديه يونانليس من معرفة بأسوان باعتبارها سوق للعاج فهو يقول « أما اليوم فلا يجد الأغنياء لذة في مأكلهم ، ولا نكهة لسمك موسى Rhombus ولا لدما damma وتبدو العطور والرياحين كأنها عطنة إن لم تكن ألواح المائدة عريضة قائمة على فهد ضخمة فاغراه من العاج الصب المتخذ من السن الذى ترسله إلينا أسوان » (١).

ولعله رأى وهو فى أسوان بعض أهل مروى فهو يصف نساءهم وصفاً كأنه صادر عن شاهد عيان : « من يعجب للحلق وادم فى جبال الألب أولئدى امرأة من أهل مروى أضخم من طفلها السمين ؟ » (٢).

والحق أن يونانليس كان مشغول الخاطر بمصر وأهلها وآثارها وديانها منذ بدأ ينشر شعره ، وهو دائم الإشارة إليها من قريب أو بعيد لا تغيب عن ذهنه قط . فهو إن نعى قلة الأتقياء قال « إن الأتقياء قليل ، لا يكاد عددهم يبلغ عدد أبواب طيبة أو مصبات النيل الثرى (٣) » وإن عاب على الإمبراطور أوتو ولعه بمظهره قال « إن الإمبراطور أوتو يظل فى مرآته قبيل المواقع وهو شىء لم تأت سميراميس وهى تحمل جعبتها فى مملكتها الآشورية ولا كليوباترة التعسة على ظهر سفينتها فى أكتيوم » (٤) . وإن أراد أن يقول إن الرجل بأعماله لا يحبه قال « أسلم يا جايوليكيوس أو أنت ياسيلانوس مهما يكن منبتك فإن أنت أثبت لوطنك أنك مواطن نادر ممتاز فسيخبر بك وسيردد الجميع ما يردده الشعب كله عندما يجلدون أوزيريس » (٥) .

(١) راجع القصيدة ١١ ، ١٢٠ - ١٢٤

(٢) » » ١٣ ، ١٦٢ - ١٦٣

(٣) » » ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧

(٤) » » ٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩

(٥) » » ٨ ، ٢٦ - ٣٠ . لقد تواترت الأقوال عند المؤرخين القدماء بتهليل

المصريين عند ما يمجدون عجل أبيس إذ كانوا يعتقدون إنه تجسد لأوزيريس .

راجع مينوكيوفيلكس ٢٢ *mox inuents parvulo gaudet Isis, sacerdotes. exultant*

وانظر ترتوليانوس « ضد ماركيو » ١ ، ١٣ *Osiris . . . quaesitur et cam*

gaudio invenitur

هذه إشارات بريئة . ولكن شعر يونانيس بغيض بأبيات تم عن كرمه لمصر وأهلها وذيانها وتغلغل هذه النديانة في روما بل إن حقدته على أحد المصريين كان من الأسباب التي دفعته إلى كتابة الهجاء . فهو يقول في مستهل هجائياته :

« إذا ما بنى الخصى الرقيق بزوجة ، وإذا ما كسحت ميوباً عن ثديها وامتشقت حزبة وتصدت لصيد الدب الاترسكي ، وإذا ما انبرى أحدهم وقد كانت ذقني الخسنة تترعند ما كان يحلقها لي في شباني فتعدي بزوته الخاصة النبلاء قاطبة ، وإذا ما كان فرد من حثالة النيل هو كريستينوس وقد كان عبداً في كانوبوس^(١) يطوح بعباءته الضووية على كتفه ويهوى خاتماً صديقاً على أصابعه الندية لأنه لا يستطيع أن يحتمل ثقل حجر كريم أكبر من هذا حجماً ، فنن العسير أن لا يكتب المرء الهجاء^(٢) . لقد بلغ كريستينوس هذا مرتبة قائد الحرس الإمبراطوري في روما . ولكن حقد يونانيس المتأجج عليه

= وانظر أيضاً بلوتارخوس إيزيس وأوزيريس ٣٩ .

وحدث في سنة ٧٠ أن عثر على أبيق وقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيبه (راجع سيوتونيوس «حياة تيتوس») وقد كانت حفل تنصيب أبيس سنة ١٢٢ مناسبة لقيام اضطرابات في مصر . وإنا لنعلم أن العجل أبيس كان له أجل معلوم لا يحل له أن يتجاوزوه وهو خمسة وعشرون عاماً . فأغلب الظن إذن أن المناسبة التي علفت بذهن الشاعر والتي أشار إليها في هذه الأبيات كانت مناسبة تنصيب العجل أبيس الثاني للعجل الذي حضر تيتوس حفل تنصيبه سنة ٧٠ وهي تقع بين ٩٥ ، ٩٧ .

وقد ظل الاحتفال بتنصيب العجل أبيس يحيا في مصر إلى أواخر القرن الرابع الميلادي فقد رأى المؤرخ أميانوس ماركيلنيوس في حوادث عام ٣٦٣ «أنه قد رفع إلى الإمبراطور يوليانيوس كتاب من والي مصر يقول فيه إنه بعد مجهود شاق قد أمكن أن يجدوا أخيراً بعد ربح من الزمن عجل أبيس وهو أمر فيما يعتقد سكان مصر يبشر بالرخاء ووفرة المحاصيل ومختلف الخيرات» . (الكتاب ٢٢ ، ١٤ ، ٦) .

(١) موقعها الآن كوم سمعدى بالقرب من أبي قير . وكانت تشتهر بالعبث والمجون (راجع استرابون ١٧٠ ، ١ ، ١٧) وقد عرف عنها يونانيس هذا الفجور وكان يضرب بها الأمثال فقال : «عند ما هربت إيبيا زوجة عضو مجلس الشيوخ مع مصارع إلى فاروس والنيل أي إلى مدينة لاجوس الشهيرة فإن كانوبوس نفسها قد استنكرت مخازي روما وأحوالها» . القصيدة (٦ ، ٨٢ ، ٨٤)

(٢) القصيدة ١ ، ٢٢ ، ٣٠

وكرهه الدفين له قد حملاه على مهاجمته أشد الهجوم وأعنفه غير عابئ بما قد تجره عليه هذه الجرأة من عواقب وخيمة حتى لقد ذهب البعض إلى أن كريسينوس هذا كان مسئولاً عن نفى الشاعر إلى مصر (١).

وقد قال بهجوه وهو لا ينوى أن يكف عنه :

« هاكم كريسيوس مرة أخرى ، فلا بد لي من حق ذكره في المحافل كثيراً . فهو وحش ليس به من فضيلة واحدة تنقذه من رذائله . وهو داعر كليل ليس فيه من قوى الإلهواته ، وزان لا يتعفف إلا عن الآنسات فحسب فإذا يجديه إذن أن تتسع ساحاته فتضني خيله ، وأن تنفسح أرجاء أحرأشه التي يترىض في ظلأها ، وأن تكثر الأفدنة والقصور التي اشتراها بالقرب من قلب المدينة ؛ ليس من شريد سعيد ، وخصوصاً الطاعر المتفحش الذي ضأجعتة منذ عهد حديث كاهنة معصوبة أشعر (٢) قضى عليها أن ترقد تحت الثرى ولا يزال دمها يجري في عروقها » .

« سأحدث الآن عن أشياء أقل خطراً . ومع ذلك فلو أن شخصاً غيره قد أتى نفس العمل لوقع تحت طائلة اللوم . ذلك أن ما يشين الرجال الفضلاء من أمثال تيتيوس وسيپوس يزين كريسينوس وماذا عسأك أن تصنع إن كان الشخص نفسه أبشع وأشنع من كل ما يقوم به ؛ لقد اشترى بوريه بستة آلاف سيسترتيوس (٣) أى ألف سيسترتيوس لكل رطل فيها كما يقول الذين يتحدثون عن الأمور الضخمة بتعابير ضخمة . ولو أنه حصل بهذه الهدية

(١) انظر O. Highet المصدر نفسه صفحة ٢٩ . وكان أول من نادى بهذا القول هو

B. Borghesi في كتابه *Annotazione alle satire di Giovenale* باريس ، ١٨٦٩ صفحات ٥١٣ - ٥١٦ .

(٢) كانت كاهنات فستا Vesta العذارى يلبسن عصابة Vitta حول شعورهن .

وكن ينذرن للإلهة بكورتهن - وقد حكم على هذه الكاهنة بالدفن حية لقاء إهدارها هذا النذر .

(٣) أى حوالى ٦٠ جنياً .

الكبيرة على المكانة الأولى في وصية عجوز لا ولد له ، أو لو أنه أرسلها — وهذا أفضل — إلى صديقة رائعة الجمال تتركب محفلة مغلقة ذات نوافذ عريضة ، لمدحت خطته الماكرة . ولكن لا تنتظر شيئاً من هذا القبيل . فقد اشتراها لنفسه ، إنا لنشهد اليوم أشياء كثيرة لم يأتها أبداً أبيكيوس^(١) الفقير الشحيح . وهل انفتحت أنت يا كريسينوس — وقد كنت فيما مضى تأتزر بردى^(٢) وطنك — هذا المبلغ لقاء سمكة ؟ لعل السمك كان يمكن أن يشتري بأقل من ثمن السمكة . إن ضياعاً تشتري في ولاية من الولايات بهذا المبلغ ، وتشتري أكبر منها في أبوليا بهذا الثمن . وكيف نتصور أصناف اللواتم التي كان يلتهمها الإمبراطور نفسه إذا كان كل هذا القلندر من المال لا يمثل إلا جانباً ضئيلاً وصنفاً واحداً على هامش مأدبة متواضعة وقد يتجسأه حلس مزيل من أحلاس القصر العظيم هو الآن رئيس الفرسان وكان همه فيما مضى أن ينادى بأعلى صوته على قراميط بلده الفاسدة^(٣) .

وهو يصفه في حضرة الإمبراطور فيقول : « وكان حاضراً أيضاً كريسينوس ، وبالرغم من أن الوقت كان الصباح المبكر فقد كان يفوح براحة لا تكاد تفوح بمثلها جنازتان^(٤) .

ولو أن الأمر اقتصر على هجاء كريسينوس هذا لسهل تعليله بأن العداوة استعرت بينه وبين الشاعر لخصومة كانت بينهما ، أو ليأس الشاعر من خير رجاء على يديه . ولكن يونانليس لا يكاد يسمع بمصرى أو بمن له صلة بمصر حتى يشحذ للهجو لسانه في مرارة وحقارة . كان يسير في السوق forum يوماً فرأى تمثال طيريوس يوليوس الكسندر وقد كان والياً على مصر من سنة ٦٧

(١) عاش أبيكيوس في عهد الإمبراطورين أغسطس وطيريوس وكان يشتهر بالفهم والولع بأطباق الموائد (راجع سنيكا الرسالة ٩٥) .

(٢) قال بلينيوس في حديثه عن البردى (١٣ ، ٢٢) كان المصريون يصنعون من لبابه الشراع والحصير كما كانوا يصنعون منه الملابس .

(٣) القصيدة ٤ ، ١ - ٣٣ .

(٤) سنة ١٠٨ ، ١٠٩ - ١٠٩ .

إلى سنة ٧٠ (١). وكان الرجل يهودياً لا يمت لمصر إلا بأوهى الصلوات ومع ذلك فقد تعرض لهجو الشاعر إذ يقول : « ثم بلغنا تماثيل النصر التي تجرأ أحد المصريين من حكام الصحراء الشرقية (٢) لأدري له اسماً فوضع بينها ألقابه . وحلال بالقرب من تماثله ألا يقتصر الناس على التبول » (٣) .

هذا مبلغ كرهه لرجلين يمتان لمصر ببعض الصلة . أما كرهه للشعب المصرى فقد تجلى فى أوضح صورة فى قصيدته الهجائية الخامسة عشر وقد جاء فيها ١ - ١٣ « من يجهل ياولوسيوس البيثيني ضروب المسوخ التي تقدها مصر المفتونة (٤) ؛ فهذه المنطقة تعبد التمساح (٥) وتلك تقدر الأيبس المتخوم بالثعابين (٦) وفى المنطقة التي تدوى فيها الأوتار السحرية من ممنون

(١) انظر كتاب "A History of Egypt under Roman Rule" J. G. Milne

الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٤ صفحات ٢٢ - ٢٩

(٢) لقد أثبت M. Rostowzew فى "Römische Mitteilungen" أن لقب « حاكم

العرب » Arabarches حاكم المنطقة التي تسمى فى مصر ببلاد العرب .

(٣) القصيدة ١ ، ٣٠ - ٣١ .

(٤) لقد كان تقديس المصريين لبعض الحيوانات موضوعاً أثراً لدى الكثيرين من الكتاب

القدماء . انظر هيرودوت ٢ ، ٦٥ - ٧٦ . ويودور الصقل ١ ، ١١ - ٢٦ ، ٨٣ - ٩٠ ،

استرابون ١٧ ، ١ ، ٣٨ ، ٤١ ، وباتارخوس « إيزيس وأوزيريس » ٧١ - ٧٥ ، وماكسيموس

الصورى ٨ ، ٥ .

(٥) يعنى الإله « سبك » وكان يعبد فى كركوديلوبوليس أى مدينة الفيوم الآن

(٦) الأيبس يمثل الإله تحوت وقد كان مقدساً فى هرموبوليس الكبرى أى الأشمونين

وهرموبوليس الصغرى أى دمنهور . وقال هيرودوت ٢ ، ٧٥ « وتذهب الرواية إلى أن الحيات

المجنحة تطير فى الربيع من بلاد العرب صوب مصر ولكن الطائر أبا منجل (الأيبس) لا يدعها

فى طريقها بل يبيدها . ويقول الأعراب إنه من أجل هذه الخدمة يقدر أبو منجل عند المصريين

تقديساً عظيماً . ويوافق المصريون على أنهم يقدرسون هذه الطيور من أجل هذه الخدمات » . ويقول

بلينيوس ١٠ ، ٧٥ « ويستعبد المصريون بالأيبس ضد هجمات الثعابين » . وقال كيكرو فى كتابه

« فى طبيعة الآلهة » ١ ، ٣٦ « فالمصريون وهم مثار السخرية لا يقدرسون الحيوان إلا لفائدة

يخونونها منه . فالأيبس (أبو منجل) وهو طائر كبير ذو سيقان قوية ومقار طويل صلب يهلك

عدداً كبيراً من الحيات . فهذه الطيور إذن تحمى مصر من الأمراض الوبائية بقتلها والتهامها

للحيات الطائرة التي تجلبها الرياح الجنوبية الغربية من صحراء ليبيا . وهكذا تجنب مصر ويلات

لدغاتها وهى حية وشر العدوى عند مماتها » . وقال أميانوس ماركيلينوس ٢٢ ، ١٥ ، ٢٥ : « =

المصدوع^(١) وحيث تقع طيبة القديمة المتداعية بأبوابها المائة^(٢) يتلأأ التمثال الذهبي للنساسة^(٣) . هنا يعبدون القطط^(٤) وهنا سمك النيل^(٥) . وهناك

« ومن الطيور المصرية الأبيس وهو مقدس وأليف ومحجوب لأنه ينقل بعض الحيات إلى أعشاشه ليتخذها طعاماً له ، فيكون بذلك سبباً في هلاك هذه اللعنات المميته وندرتها . وهذه الطيور أيضاً تصطرع مع جحافل الحيات المجنحة ، التي تأتي من مستنقعات بلاد العرب وتنتج سموماً خبيثة . وتزعمها في معارك جوية وتلتهمها قبل أن تغادر حدود بلادها » .

(١) في الأساطير اليونانية أن أن ممنون ابن تيثونوس وإلهة الفجر . وقد أطلق الإغريق اسمه على تمثال أمنتب الثالث وزوجه الليبية قى . وأول من وصف ظاهرة صدور الأنعام عن التمثال هو : استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٦ حيث قال « ويوجد هنا تمثالان ضخمان متجاوران كل منهما من حجر واحد . أحدهما سالم أما الآخر فقد تهدم من القاعدة إلى الأجزاء العليا على إثر حدوث زلزال فيما يقولون . والمعتقد أنه يصدر مرة كل يوم صوتاً كأنه صغير خافت من ذلك الجزء من التمثال الذي بقى على العرش ومن القاعدة . وعند ما كنت حاضراً في هذه البقاع مع ايليوس جالوس وجهور حاشيته من الأصدقاء والجند ، (سنة ٢٥ ق) سمعت أنا نفس الصوت حوالى الساعة الأولى (الأولى من شروق الشمس أى السادسة صباحاً) ولكنى لست بقادر أن أجزم فيما إذا كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم قد أطلقه أحد الذين كانوا واقفين في دائرة بالقرب من القاعدة . ذلك أنى أميل - لخفاء العلة - إلى تصديق أى شيء إلا أن يكون الصوت صادراً من الحجارة المصقوفة على هذا النحو » . ولما زار الإمبراطور سيفيروس مصر سنة ١٩٦ ب م . أمر بترميم التمثال فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك التاريخ .

(٢) كانت طيبة وموقعها الآن الأقصر تعرف بذات المائة باب فقد قال هوميروس « الالياة » (٩ ، ٣٨٣) طيبة ذات المائة باب ، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب بجيهم ومركباتهم » .

وقد زارها استرابون سنة ٢٥ ق م فقال (١٧ . ١ . ٤٢) وترى إلى الآن آثار عظمتها ممتدة مسافة ثمانين استاد طولاً وتوجد بها معابد عديدة وقد خرب قمبيز أكثرها . والمدينة الآن مجموعة من القرى » .

(٣) Cercopithecus ؛ جاء في معجم الحيوان للفريق أمين المعلوف أنه الهجرس وهو قرود صغير طويل الذنب يعرف عند عامة المصريين بالنساسة . وكان يرمز للإله تحوت ويقدس من الأشمونيين .

(٤) القط يرمز للإلهة باست وكانت تعبد في يوباسطين وموقعها الآن الزقازيق . قال هيرودوت (٢ ، ٦٧) « وتنقل القطط بعد موتها إلى مقاصير مقدسة في مدينة يوباسطيس حيث تحفظ وتدفن » . وقال ديودور الصقلي (١ ، ٨٣) ومن يقتل عامداً أحد الحيوانات المقدسة يلاق الموت ، أما من يقتل قطعاً أو أبا منجل (أبيس) فسواء قتلها عامداً أو غير عامد فالموت نصيبه على كل حال .

(٥) قال هيرودوت (٢ ، ٧٢) « ويعتبر مقدساً من الأسماك ، النوع الذى يسمى بالشبوط وثعبان الماء وهذان النوعان من الأسماك مقدسان فيما يقولون للنيل » . وقال استرابون (١٧ ، =

القرى كلها تعبد الكلب^(١) . ما من أحد يعبد ديانا^(٢) . وحرام أن يدنس الكرات والبصل^(٣) وأن يقضم بالأسنان . يا له من شعب قدسى تنمو عنده هذه الآلهة في حدائقه ؟ إن المواثد كلها تعزف عن ذى الوبر^(٤) من الحيوان ، ومن الحرام هناك ذبح صغار الجداء^(٥) . ومع ذلك فمن الحلال أكل اللحم البشرى^(٦) .

(= ١ ، ٤٠ ،) ويوجد على الضفة المقابلة من النهر مدينة أوكسيرنخوس = أى مدينة القنومة (هى البهنة الآن) وإقليم هذا الاسم . وهناك يعظمون القنومة ويوجد عندهم معبد للقنومة مع أن سائر المصريين يشتركون في تعظيمها وأهل إقليم لاطوبوليس (هى إيسنا الآن) يعظمون اللوطوس وهو نوع من السمك في النيل .

(١) كان الكلب مقدساً للإله ست . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « مدينة لينوبوليس أى مدينة الكلب (وموقعها الآن الشيخ فضل في مواجهة بنى مزار حيث يعظم أنوبيس وحيث تقام مأدبة مقدسة للكلاب » . ويقول ديودور الصقل ١ ، ٨٧ « يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس ... » إن كافة المصريين يشتركون في تعظيم بعض الحيوانات كالثور والكلب والقط .

(٢) الإلهة Diana تقابل عند اليونان أرتيمس وقال هيرودوت ٢ ، ١٣٧ « والإلهة بوباسطيس هى فى اللغة اليونانية أرتيمس »

(٣) قال بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » (٨) « ولكن الكهنة يعزفون عن البصل ويكرهونه ويتعمدون أن يتجنبوه » . وقال بلينيوس (١٩ ، ٣٣) « والمصريون يعدون الثوم والبصل بين الآلهة عند الحلف » . هذا عن البصل أما الكراث فلم يرد ما يشير إلى تقديسه في غير هذا الموضع .

(٤) يعنى الكباش وهو مقدس لنخوم . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « أهل سايس (صا الحجر) يعظمون الكباش وكذلك أهل طيبة « الأقصر » وقال هيرودوت (٢ ، ٤٢) « ولا يضحي أهل طيبة بالكباش فهى عندهم مقدسة » .

(٥) يقول استرابون (١٧ ، ١ ، ١٩) منديس (تل الربع فى الجنوب الشرق من المنصورة) حيث يعبدون بان « ويقول هيرودوت (٢ ، ٤٦) « يقدس أهل منديس الماعز ولكن الذكور منها أكثر من الإناث ورعاة الذكور يحظون بتعظيم أكثر من رعاة الإناث ، ويقدس واحد من الذكور بوجه خاص ، فإذا مات يعم الحداد العظيم كل إقليم منديس وفى مصر يسمى الماعز وبان كلاهما بمنديس » .

(٦) لقد أنكر هيرودوت مجرد التضحية بالإنسان فتساءل (٢ ، ٤٥) « كيف يجوز لقوم لا تحل لهم التضحية بالحيوان إلا الخنازير والثيران والعجول ما كان منها طاهراً والأوز ، أن يضحو بأدميين ؟ » ومع ذلك فقد قال ديودور الصقل (١ ، ٨٤) « يحكى أن القحط هصر المصريين مرة فصاروا في عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً ولكن أحداً منهم لم يتهم - مجرد تهمة - بتناول أى الحيوانات المقدسة » .

ثم يقول (٢٦ - ٨٣) بعد استطراد قصير « سأروى الآن قصة عجيبة وقعت حديثاً في عهد قنصلية يونكوس (١) خارج أسوار قفط المحرقة . سأروى خبر جريمة ارتكبتها الشعب كله هي أبشع من كل ما في المآسى المسرحية من جرائم . فإن أنت استعرضت كل الجرائم في المآسى المسرحية فلن تجد بين كتاب المآسى من جعل الشعب هو المجرم . واسمع أى جريمة أتت بها الهمجية العارمة في عصرنا هذا .

إن العداء القديم المتأصل والكره الأبدى الذى لا تندمل جراحه أبداً لا يزال إلى الآن متأججاً بين المدينتين المتجاورتين أمبي (٢) وتنتيرا (٣) . فالحق في كليهما عظيم شامل لأن كل منطقة منهما تمقت آلهة جيرانها (٤) . لأنها تؤمن أن الآلهة الوحيدة التى يجوز أن تعد آلهة هي الآلهة التى تعبدوها هي

(١) كان يونكوس قنصلاً سنة ١٢٧ ب . م .

(٢) كان المعتقد قديماً أن أمبي هي كوم أمبو ولعل ما حدا بالعلماء إلى هذا الرأى ما اكتشف في كوم أمبو من جبانات شاسعة للتأسيح المحنطة . راجع Moset (المصدر نفسه) صفحة ٣٦٥ . وحيث أن كوم أمبو « تبعد عن مدينة تنتيرا وهي دندرة الحالية بمسافة تزيد عن ١٢٠ ميلاً فقد شك في صحة وصف المعركة لأن كوم أمبو على الجانب الأيمن من النيل في حين أن دندرة على الجانب الأيسر منه ، ثم إن واحدة منهما فقط إلى الشمال من قفط . وإذن فلا يمكن أن تقوم بينهما معركة على الإطلاق .

وقد ذهب العلماء بصدد هذا الشك مذهبين فأما الأول فقد أنكر صحة نسبة القصيدة الخامسة عشرة برمتها إلى يونانليس (راجع C. Kempf في كتابه De Satira quinta decima quae sub Juvenalis nomine circumfertur ، برلين سنة ١٨٤٣) وأما الثانى فقد أنكر أن يونانليس زار مصر (راجع Duff. المصدر نفسه ص . ٦٠٢ هامش (١) .

ولكن J. Dümichen أخرج سنة ١٨٧٩ في برلين كتابه في تاريخ مصر القديمة Geschichte des Alten Agyptens وبرهن فيه (صفحة ١٢٥ - ١٢٦) على أن أمبوهي مدينة نبط المتاخمة لدندرة . وفي سنة ١٨٩٥ قام W. M. F. Petrie J.E. Quibell بالحفائر في هذه المنطقة وأخرجها سنة ١٨٩٦ كتابهما Naqada and Ballas وأثبتا فيه أن أمبي هي نبط بما لا يدع مجالاً للشك (انظر صفحات ٦٥ - ٧٠) .

(٣) موقعها الآن دندرة وكان اسمها في العصر اليونانى الرومانى أفروديتويوليس أى مدينة هاتور .

(٤) كان الإله ست يعبد في أمبي ويقول Moret (المصدر نفسه ص . ٦٨) إن نبط كانت أقدم مراكز عبادة الإله ست ومقل أتباعه السياسى . وهي بالقرب من نقادة وبلاص على الضفة الغربية من النهر في مواجهة قفط . وكان ست يصدر على شكل تمساح . أما دندرة =

نفسها وقد حدث في فترة العيد عند أحد هذين الفريقين أن بدا لأعيان خصوصهم وقادتهم كلهم أنه لابد من انتهاء هذه الفرصة حتى لا يتمتع أعداؤهم بيوم فرح وحبور ، ولا بلدة العشاء الفاخر إذ تمد الموائد أمام المعابد وفي مفترق الطرق ويسهرون على الأرائك تمد بالليل والنهار إلى أن تطلع عليها شمس اليوم السابع^(١) . إن مصر ولاشك عاتية ولكن شعبها الهمجي لا يختلف في الترف كما لاحظت بنفسى حتى عن كانوبوس الشهيرة^(٢) . أضف إلى هذا

= فقد كانت مركزاً من مراكز عبادة الإلهة هاتور . وقد قام الإمبراطور دوميتيانوس ببناء بوابتين لمعبدها في دندرة سنة ٨٨ . وكان أهل دندرة يشتهرون بكراهيتهم للتمايح قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) « وفي مدينة تنتيرا على عكس الأمر عند سائر المصريين لا يعظم التماسيح بل يعد أبغض الحيوانات كلها . ذلك أنه بالرغم من أن سائر المصريين يعرفون ضراوة الحيوان ومبلغ فتكه بالجنس الإنساني فإنهم مع ذلك يقدسونه ولا يؤذونه ، في حين أن أهل تنتيرا يتعقبونها ويقتلونها بكافة الطرق . ويقول البعض إنه كما يوجد نوع من النفور الطبيعي بين البلسيين بالقرب من فورينة وبين الزواحف ، فكذلك الحال بين أهل تنتيرا والتمايح حتى إنهم لا يصيهم منها ضر . بل إنهم يغطسون في نهر بلا خوف ويعبرونه في حين لا يجرؤ أحد غيرهم على ذلك ... وهم يعبدون أفروديتي^٣ » . وقال بلينيوس (٨ ، ٣٦) « إن فئة من الناس تدعى أهل دندرة من اسم الجزيرة التي يسكنونها في النيل ذاته تعادى التماسيح ... وهؤلاء وحدهم هم الذين يجرؤون على مهاجمة فهم يسبحون في النهر ويعتلون ظهره كما لو كانوا يمتطون صهوة جواد ، وعند ما يفغرفاه ويميل برأسه للوراء للعض يدخلون في فيه عصا ويمسكون بطرفها ياتمين والشمال ويسوقون أسيرهم إلى الشط كما لو كانوا عمسكين بأعنة . وهم يخيفون التماسيح بمجرد الصراخ حتى يضطرونها لقيء ما التهمت من جثث حديثة لدفنها . ولذلك فإن التماسيح لا تقرب هذه الجزيرة وحدها كما أن رائحة هذا القبيل من الناس تذودها كما تذود رائحة البلسيين الحيات » .

(١) لقد أورد F. Petrie في كتابه Denderah ، لندن ١٩٠٠ ص ٥٧٠ - ٥٩٠ . وصفاً دقيقاً لولائم كبرى كانت تقام في دندرة . أما أن المصريين كانوا يولون خارج البيوت فظاهر من قول هيرودوت (٣٥ ، ٢) « وهم يأكلون خارج بيوتهم في الطرقات » . ومن قول ميلاد (١ ، ٥٧) « إنهم يتناولون طعامهم علناً خارج بيوتهم » أما عن عدد أيام العيد فيقول أميانوس ماركيلينوس (٢٢ ، ١٥ ، ١٧) « وبالرغم من أن التماسيح ضارية على اللوام ، فإنها تنبذ ضراوتها وتهدأ كأنها عقدت هدنة عسكرية طوال أيام العيد السبعة التي يحتفل فيها كهنة منف بميلاد النيل » .

(٢) راجع الهامش (١) ص ١٦ .

أن الانتصار سهل على قوم مخمورين يترنحون في شراهم^(١) . ففي ناحية قام نفر يرقصون على أنغام زمار^(٢) اسمر وقد تعطروا بما اتفق من عطور ، وكللوا جباههم بأكاليل من مختلف الورود . وفي الناحية الأخرى كان الحقد ضارياً . وقد بدأ السباب يدوى أولاً ، وهو بمثابة نفير الاشتباك لنفوسهم الملتبئة . وعندئذ التحموا وقد تعادل الصراخ في الجبهتين وصالت الأيدي الغزل بدلا من السلاح ، فقل من الأصداغ ما نجت من الجراح . ولم تخرج أنف واحدة سالمة من كل هذا الشجار ، ويمكنك أن ترى الوجوه مشدوخة الآن في الجبهتين جميعاً ، وقد تغيرت الآن سماتها وبرزت العظام من الأصداغ المشجوجة ، كما ترى قبضات أيديهم وقد تلتطخت بالدماء التي سالت من العيون . ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يطأونها . ولا غرو فما جدوى الدهماء في كل هذه الآلاف من المتشاجرين ، إذا كانوا كلهم سيعيشون ؟ ومن ثم اشتد الهجوم أكثر من ذي قبل فقد فقتشوا الأرض عن الحجارة^(٣) وهي أسلحتهم الوطنية في الفتن وأخذوا يطوحون بها بأذرعهم . وهي ليست كالحجارة التي

(١) يقول هيرودوت (٢ ، ٧٧) « إن المصريين يتعاطون خراً مستخرجة من الشعير إذ لا يوجد في بلادهم كروم » . وقال بلينيوس (١٤ ، ٩) إن النبيذ السبيني (السمودي) ينتج في مصر وهو يصنع من ثلاثة أنواع شهيرة من العنب تنمو فيها . وتحدث (١٤ ، ١٩) عن خمر البلح وفي (١٤ ، ٣٩) عن خمر الشعير .

(٢) قال هيرودوت (٢ ، ٢٨) في وصف عيد دبونيوس « ويتقدم الزمار الموكب » وقال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) وفي أييدوس يقدسون أوزيريس ، ولا يسمح في معبد أوزيريس لمغن أو لنافخ ناي أو عازف قيثارة أن يستهل الشعائر كما هي العادة في سائر طقوس الآلهة .

(٣) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لقد صمد بترونيوس وليس معه إلا حرسه من الجند عند ما حاجه جمع لا يحصى من السكندريين بوابل من الحجارة » .



المرحوم الدكتور وهيب كامل

كان يقذف بها تورنوس^(١) أو آياس^(٢) أو كالى ضرب بها ابن تيديوس^(٣) أينياس على حقوه ولكنها تليق بأن تطلقها أيدي لا تشبه أيديهم فهي مولودة في عصرنا هذا . ذلك أن الجنس الإنساني بدأ حتى في عصر هوميروس يندوى فالأرض الآن تخرج رجالاً أشقياء ضعاف^(٤) ولذلك فإن كل إله يرمقهم يسخر منهم ويمقتهم .

« ولنعد الآن من هذا الاستطراد إلى قصتنا : فبعد أن ازدادوا بالمدد تجاسرت فئة منهم فاستلت السيوف وبدأت المعركة من جديد بالسهام الخطرة ، فما كان من سكان تيثرا المجاورة ذات أحراش النخيل الظليلة إلا أن لاذوا بالفرار مهولين أمام هجوم أهل أومبي . وكان الرعب الشديد قد استبد بواحد منهم فأسرع في الجرى فعثر وقبض عليه . وما كان من الفئة المنتصرة إلا أن مزقته إرباً وأجزاء كثيرة حتى يكفي قتيل واحد الكثيرين ، والتمهته كله ونهشت عظامه . ولم ينضج بالسلق في أوانٍ ولم يشو على السفافيد فقد رأوا أن انتظار إنضاج النار سيكون طويلاً وثقيلاً فرضوا بالحنة نيئة .

وهو لا يلتبس للشعب عذراً فيما وصف فهو يقول (١١٩ - ١٢٨) ولكن ما الخطب الذى دفع هؤلاء إلى هذا ؟ أى مجاعة طاحنة هصرتهم أو أى أسلحة مبيدة حصرتهم فاضطرتهم إلى الاجترأ على مثل هذا الإثم المشنوء ؟

(١) تورنوس في « الإلياذة » لفرجيليوس هو ملك الروتوليين وقد قاوم غزو الطرواديين أشد مقاومة والإشارة إلى ١٢ ، ٨٩٦ - ٩٠١ .

(٢) آياس ابن تيلامون قائد السالامينيين في حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ١٨ ، ٧ م ، ٢٦٩ ، ١٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ .

(٣) ابن تيديوس هو ديوميديس وهو قائد أهل أرجوس في حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ٣٠٢ ، ٥ ، ٣٠٥ .

(٤) كان اليونان ، والرومان من بعدهم ، يؤمنون بنكسة الجنس الإنساني وبأن العصر الذهبي كان أسبق العصور ثم تلاه العصر الفضى ثم البرونزى ثم عصر الأبطال وهو العصر الذى يمثلته شعر هوميروس ثم أخيراً العصر الحديدي وهو أسوأ وأحط العصور كلها .

فلو أن أرض منفيس جفت فهل كان في وسعهم أن يأتوا أكثر من هذا كيداً في النيل الذى أبى أن يفيض ؟

لا السمبريون^(١) والبريضانينون المرعبون^(٢) ولا السرماطيون^(٣) العتاة ولا الأجاثريسيون^(٤) المخبولون قد هاجوا مثل هياج هذا الشعب الخانع^(٥) التافه الذى كان همه من قبل أن يضع أشرعة صغيرة على قوارب من الخزف وأن يزود الزوارق الفخارية الملونة بمجاديف صغيرة^(٦).

ونلاحظ أولاً أن القصيدة تفيض بالكراهية للمصريين. حقاً إن يونانيس كان يكره الأجانب عموماً من يونانيين^(٧) ويهود^(٨) وكللدانيين^(٩) إلا أن كرهه هؤلاء لا يبلغ مبلغ الحقد العام الذى جعله يقف هذه القصيدة برمتها على هجاء مصر وأهلها. وإن هذا الحقد قد أعماه عن شيئين. أعماه عما كان يجرى في سائر البلاد من مخاز لم يذكر منها واحدة ، كما أعماه عما كان يدور في روما نفسها في « حلقات المصارعة » حيث كان الإنسان يتصدى للحيوان كما كان يتصدى لأخيه الإنسان ولا يخرج من حلبة المصارعة إلا قاتلاً أو مقتولاً.

(١) السمبريون Cimbrى شعب سلقى اتحد بالتوتون واتحدوا جنوباً في أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وهزموا الرومان مرات عديدة كان آخرها سنة ١٠٥ ق. م. ولكنهم لحسن حظ الرومان لم يعبروا جبال الألب فيغزوا روما وإنما ساروا إلى أسبانيا. ولما رجعوا كان الرومان قد استعدوا لهم فهزمهم سنة ١٠٢ ، ١٠١ ق. م. ونحوف الرومان منهم ضربوا بهم المثل في القسوة.

(٢) وصفهم هواتيوس في الأغاني (٣ ، ٤ ، ٣٣) « بأنهم قساة على الأجانب ».

(٣) هم سكان شرق روسيا وبولندا

(٤) وصفهم هيرودوت (٤٠ ، ١٠٠) بأنهم سكان ترانسلفانيا.

(٥) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لا المصريون أنفسهم محبوبون للحرب ، مع أنهم كثر ، ولا القبائل المجاورة ».

(٦) قال استرابون (١٧ ، ٤١) « إن بعض الناس يتخذون مراكب من الفخار ».

(٧) انظر ٣ ، ٦١ ، ١١ ، ١٠٠ ، ١٣ ، ١٢١ .

(٨) انظر ١٤ ، ٩٧ .

(٩) انظر ٦ ، ٥٥٣ .

كل ذلك والناس من حولهم يتلذذون بما يشاهدون ويزجون فراغ يوم العطلة . وكانت في يونانيس حسنة لا تنكر هي كرهه للاستعمار واستغلال المحكومين . قال مخاطب والياً . « وعند ما تدخل آخر الأمر الولاية التي كنت تحلم مدة طويلة أن تكون حاكماً لها ، فضع لحاماً واحداً لنزقك ، وضع حداً أيضاً لحشعك وارثي لحال أهل الولاية المعلمين . فإنك لترى عظامهم قد جفت وخلت من نخاعها ، واحترم ما تأمر به القوانين ، وما يوصى به مجلس الشيوخ^(١) . ولما طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس پريسكوس وانهمته بالرشوة وسوء الإدارة ، وأدين ونفى ؛ كتب يونانيس معلناً عطفه على الولاية وأهلها يقول « إن ماريوس في منفاه يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ويرتع في غضب السماء ، أما أنت أيتها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين^(٢) » . وكانت مصر ولاية رومانية يغتصب قمحها وتستنزف مواردها ، وتثن تحت وطأة الاحتلال الروماني الغاشم ولكنها لم تحظ من يونانيس مع معرفته بأحوالها بكلمة رثاء أو عطف واحدة . مما يرجع كرهه للبلاد وتحامله في وصف أهلها .

ونلاحظ ثانياً أنه يهاجم الديانة المصرية هجوماً لا ينم عن كرهه لها ولمعتقداتها فحسب ؛ بل ينم عن خوفه وقلقه من تغلغلها في المجتمع الروماني^(٣) وتقويضها دعائم الديانة الرومانية . فهو يتهم بها أشد التهم ويقذع في هجاء كهنتها أفحش الإقذاع ويندد بمعتقداتها من الرومان تنديداً كله مرارة وتثريب . قال يتهم بامرأة تقية ٦ ، ٥٢٦ - ٥٤١ « إماما أمرتها أبو^(٤) البيضاء فسوف تذهب إلى

(١) انظر ٨ ، ٨٧ - ٩١

(٢) راجع هامش (١) ص ٩

(٣) راجع « عبادة إيزيس في إيطاليا » The Cult of Isis in Italy للدكتور محمد

سليم سالم « رسالة » ليثربول سنة ١٩٣٧ .

(٤) هي ابنة إيتاخوس ملك أرجوس أثار بها إعجاب زيوس وحفيظة هيرا ، فسختها بقرة . وللأسطورة أصول في الأساطير المصرية القديمة . وهي هنا تعبير عن إيزيس .

حدود مصر وتحضر مياه مستقاة من مروي^(١) الحارة لترشها على معبد إيزيس الذى يقوم بالقرب من الميدان الحربى لأنها تؤمن أن الأمر قد صدر إليها بصوت الآلهة نفسها . يا له من عقل وقلب تتحدث إليه الآلهة بالليل ! ولذلك فإن المرتبة الأولى والعليا لتولى لأنوبيس^(٢) الذى تحيط به طائفة لابسى الكتان^(٣) حليقى الرعوس^(٤) . وهو^(٥) يسخر من الباكين وهو يجرى . وأنوبيس هو الذى يحصل لها على الصفح إذا لم تمتنع زوجة عن الجماع فى الأيام التى ينبغى أن ترعى قداسها . وهو الذى يقتص قصاصاً كبيراً إذ ما تدنس فراش الزوجية أو إذا رثى الثعبان الفضى يحرك رأسه . وإن دموعه وهمساته المدروسة لتدل على أن أوزيريس سوف لا يأبى الصفح عن الجرم . وذلك طبعاً بعد أن يرشى بأوزة سمينية وشظيرة من كعكة التضحية . « والحق أن إيزيس قد غزت قلوب أهل روما فامتلاّت معابدها هناك بالنذور وقد رأى يونانيس فى النذور الذى ملأّت معابد روما شاهداً على أن « إيزيس هى التى تقيم أود مصورينا »^(٦)

(١) لقد أثبتت الحفائر التى قام بها جارستانج وسائيس وجريفيث وأخرجوا نتائجها فى كتابهم Meroe ، لندن سنة ١٩١١ ؛ أن معبد إيزيس فى مروي كان يحتوى على أدوات للظهور من العصر اليونانى الرومانى . مما يؤكد أن بعض عباد إيزيس كانوا فعلاً يزورون معبدها هناك . راجع G. Highet المصدر نفسه صفحة ٥٤٢ - ٣٤٣

(٢) فى الديانة المصرية القديمة هو حادى الموتى وكان يصور برأس كلب وقد عاون إيزيس فى البحث عن جثة أوزيريس ومن هنا كان دائماً فى ركابها .

(٣) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) إن ملايس الكهنة المصريين من الكتان .

(٤) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) « ويخلق الكهنة كل أجسامهم كل يومين » .

(٥) أى الكاهن الذى يمثل أنوبيس فيلبس قناعاً يصور كلباً يجرى . والباكون هم الذين يحددون على موت أوزيريس . قال هيرودوت (٣ ، ٦١) يصف العيد فى مدينة بوسيريس « يضرب الرجال والنساء جميعاً صدورهم وهم آلاف كثيرة جداً من الناس ، وليس لى أن أذكر على من يحددون » .

وقد حاول أن يحطم نفوذ إيزيس في روما فصور معابدها مباءت للبخنا والفسجور فإذا إزيت غادة فلأن عشيقها ينتظرها في إحدى الحدائق أو بالقرب من محراب « إيزيس القوادة »^(١). وإذا تعرض أحد أتباعها للغواية فليس في عبادتها عاصم « ومن الناس من يخشى أن يكون العقاب في إثر الجريمة ، وهو يؤمن بالآلهة ولكنه مع ذلك يأثم ويجادل نفسه على هذا النحو . لتصرف إيزيس بيدي كما تشاء ولتطح ببصري بناقوسها Sistrum المرعد ما دمت حتى بعد فقدان بصري أحفظ بالأموال التي خنت الأمانة فيها »^(٢) .

والحق أن الديانة المصرية كانت تجد في روما مرتعاً خصيباً وكان نفوذها يتزايد فيها إلى حد يزعج أهل الفكر من الرومان ، فكانوا يشنون على مصر ودياناتها حملة من الدعاية تخفف من نفوذها إلى حين . وقد حدث هذا بشكل واضح مرتين ، أولاهما بعد موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق . م والثانية بعد زيارة الإمبراطور هادريان لمصر سنة ١٣٠ م .

فقد كان من تأثير كليوباترة على قيصر وزيارتها لروما ودعاتها لمصر أن انتشرت عبادة إيزيس في روما إلى حد اضطرمعه «الحكم الثلاثي» أن يقيم معبداً لإيزيس في روما سنة ٤٢ ق . م استرضاء للجماهير واجتذاباً لعطفهم^(٣) وتفتت عبادتها في روما حتى أن كهنتها ومريديها برزن في أدب العصر الأغسطي^(٤) فلما كانت موقعة اكتيوم نفيت إيزيس خارج أسوار روما^(٥)، وشتت حملة للدعاية ضد مصر وديانتها^(٦) . وكانت السياسة العامة هي محاربة

(١) انظر القصيدة ٦ ، ٤٨٧ - ٤٩١

(٢) » » ١٣ ، ٩٠ - ٩٤ .

(٣) راجع ديوكاسيوس ٤٣ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ١٥

(٤) راجع كاتولوس ١٠ ، ٢٦ وتيبولوس ١ ، ٣ ، ٢٣ وبروبرتيوس ١١ ، ٢٣

(٥) راجع ديوكاسيوس ٥٣ ، ٢

(٦) راجع فرجيليوس « الإنيادة » ٨ ، ٦٨٥ - ٧١٣ وهوراس الألفاني ١ ، ٣٧

٤ ، ٩ وبروبرتيوس ٣ ، ١١ ، ٢٩ - ٥٨ وأوفيد يوس « التناسخات » ١٥ ، ٨٢٦ - ٨

ولوكانوس « فارساليا » ٨ ، ٥٤١ - ٥٥٠ .

نفوذ الديانة المصرية في روما، طوال حكم الأمبراطورين أغسطس وطيبيريوس^(١) حرباً فترت في عهد الإمبراطورين كاليجولا وكلوديوس. فلما جاء نيرون عاد نفوذ الديانة المصرية من جديد^(٢). وكان الإمبراطور أوتو (سنة ٦٩ م) أول من اشترك فعلاً في إقامة الشعائر المصرية من الأباطرة^(٣). واتخذ الإمبراطور فسباسيانوس (٦٩ - ٧٩ م) متجداً خاصاً في معبد سيراييس^(٤) وكانت عبادة إيزيس أثناء الصراع العنيف الذي قام سنة ٦٩ م نشطة حتى أن دوميتيانوس استخفى في زى أحد كهنتها^(٥) وقد رد إليها هذا الصنيع بأن أعاد بناء معبدها في الميدان الحربى سنة ٩٢ م على نطاق واسع^(٦). أمّا الإمبراطور هادريانوس فقد أولع بمصر وديانها وآثارها فأطال فيها إقامته واختلط بعلماء المتحف في الإسكندرية وأقام في قصره في تيبور (تيفولى) جناحاً مصريةً سماه كالإيوس كانت الروائع الفنية التى اشتمل عليها مزيجاً من الفن المصرى الخالص والفن الرومانى^(٧). وتتبع الناس في روما هوى الإمبراطور وأصبح الحديث عن مصر والأخذ بترائها زى العصر الشائع في روما حتى لقد بلغ عند بعض الناس مبلغ الهوس، فصار لمنجميها وعرافيها

(١) راجع ديوكاسيوس ٥٤ ، ٦ ، ٦ ، وتاكيوس « الحوليات » ٢ ، ٨٥ ، وسينيكا « الرسائل » ١٠٨ ، ٢٢ وسيوتونيوس « حياة طيبيريوس » ٣٦ .

(٢) راجع تاكيوس « الحوليات » ١٥ ، ٣٦ وسيوتونيوس « حياة نيرون » ٤٠ ، ٤٧ .

(٣) راجع سيوتونيوس « حياة أوتو » ١٢ .

(٤) راجع سيوتونيوس « حياة فسباسيانوس » ٤ ، ٥ ، ٧ وتاكيوس « التاريخ » ٨١ ، ٤ .

(٥) راجع تاكيوس « التاريخ » ٣ ، ٧٤ وسيوتونيوس « حياة دوميتيانوس » ١ .

(٦) لقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيب العجل أبيس في مصر . راجع سيوتونيوس « حياة تيتوس » .

(٧) راجع "Hadrian's Villa at Tivoli" لتوماس أشبى Thomas Ashby .
في كتاب : Wondess of The Pest (نشرة J.A. Hammeston سنة ١٩٣٨) الجزء الثالث ص ٩٣٧ - ٩٤٧ .

مكانة ملحوظة في المجتمع الروماني^(١) . وكانت النساء في روما يستشرن المنجم المصرى بتوزيرس قبل الإقدام على عمل من الأعمال^(٢) . فلا غرو أن ينبرى شاعرنا ليناهض هذا النفوذ الأجنبي الذى يجتاح روما ويكاد يقضى على تقاليدھا الدينية والاجتماعية . ولا جناح علينا إذا نظرنا إلى قصيدته الخامسة عشر كلها أعلى أنها ضرب من ضروب الدعاية ضد مصر وديانتها .

ونلاحظ ثالثاً أن يونانليس لم يكن في مصر وقت حدوث المعركة التى وصفها . فهو يقول إنها حدثت في عهد قنصلية يونكوس أى في سنة ١٢٧ م . وفي هذه السنة عينها كان الشاعر في روما وقد كتب يلداعب صديقه الذى وقع فريسة لمحتال يقول « لقد جاوزت السنين إذ ولدت في عهد قنصلية فونتوس^(٣) » . وقد كان فونتوس كابتوقصلا سنة ٦٧ م . فلا بد إذن أن يونانليس كان في روما سنة ١٢٧ م . وقوله في القصيدة « كما رأيت بنفسى » لا ينصب إلا على الموائد الممدودة التى رأى مثلها فيما مضى على المعركة التى دارت . وإذن فكل ما يرويهِ الشاعر من أنباء المعركة ووصفها وتفصيلها يجب أن يؤخذ بالخذلر الواجب مع من ينقل عن سماع .

نحن لا نشك في قيام معركة بين أهل دندرة وأهل نبط والبلدتان متجاورتان وقد أقامت دندرة حولها سوراً لتقاء لشر جيرانها^(٤) والأوراق

(١) لقد كان المنجمون المصريون يمشون في ركاب الإمبراطور أوتو والإمبراطور ماركوس أوريليوس ويصحبونهما أينما ارتحلا . انظر تاكيتوس « التاريخ » ١ ، ٢٣ وديوكاسيوس ٨ ، ٧١ .

(٢) انظر يونانليس (القصيدة ٦ ، ٥٨٠) فإذا رقدت وقد ألم بها المرض لا تتصور أن ساعة أصلح لتناول الطعام إلا الساعة التى يوحى بها بتوزيرس .

(٣) راجع هامش (٣) ص ١٠ .

(٤) انظر O. Highet المصدر نفسه ص ٢٩ ، وراجع هامش (٢) ص ٢٢ .

البردية تحدثنا عن قيام أمثال هذه المعارك بين البلدان المتجاورة^(١)، والمؤرخون القداماء يشيرون إليها بين الحين والحين^(٢)

ولنأما الذى نتساءل عنه هو طبيعة هذه المعركة . فقد روى بلوتارخوس أنه عند ما قامت المعركة بين أهل أوكسيرنخوس وأهل كينوبوليس تدخلت الجيوش الرومانية لفضها وإعادة الأمن . ولما قامت المعركة بين أهل منفيس وهليوبوليس فيما تقول « التواريخ الأوغسطية » يمم الإمبراطور هادريانوس وجهه شطر مصر لإعادة الأمور فى نصابها . وهذه معركة تقوم بين بلدين قريبتين من قفط ، وقفط معسكر من معسكرات الجيش الرومانى فى مصر^(٣) فلماذا لم يتدخل الجيش لفض المعركة ؟ هل كان قائد الكتيبة الرومانية المرباطة فى قفط أخبر بالاعدادات المصرية من السائح الرومانى الذى تصادف مروره فى هذه المنطقة ونقل ما رأى إلى يونانيس فى روما ؟ وقد بدأت المعركة بقذف الحجارة فأحرى بالرومانى الغريب أن يبتعد عن معتركها فهو فى الأكثر لم يشهدها عن كثب ، بل رأى أطرافاً منها ونقلت إليه أطراف فجمع شملها ورواها للشاعر الذى صاغها بما يتفق مع مراميه فى الدعاية ضد مصر بما يتقنه من أفانين المبالغة والتهويل ، يعينه عليهما ما يلقيه فى حنايا وصفه من لمسات واقعية يستقيها من إقامته فى مصر . والذى يعتنينا الآن هو ماذا رأى الراوى فعلاً .

إن نبط أقدم مركز لعبادة الإله ست . وقد اكتشف فيها پترى سنة ١٨٩٥ جبانة قديمة ومعبداً فيه صلوات كثيرة موجهة إلى ست نبطى

(١) راجع بردى القاهرة ١٠٣٥١ ، ١٠٣٧١ وبردى أوكسيرنخوس ١٨٣١ ، ١٨٥٣ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ . وانظر كتاب "Life and Letters in the Papyri" G. Wienter سنة ١٩٣٣ صفحة ١٧ - ١٨ .

(٢) انظر بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » ٧٢ والتواريخ الأوغسطية Historia Augusta فى حياة هادريانوس . وراجع J. G. Milne المصدر نفسه ص . ٣٤ ، ٤٣ .

(٣) راجع J. G. Milne المصدر نفسه ص ١٧٧

أى ست الإله الخاص بنبط أوست إله النبطيين وهو ابن نوت إلهة السماء وسيد مصر العليا . ولعل ست كان أقدم إله حظى بلقب سيد فلا بد إذن أن يكون أتباعه ومريديه قد فرضوا إلههم في مبدأ العصور التاريخية على الأقاليم الجنوبية وجعلوه أول ملك لمصر العليا . ولم يكن ست من آلهة النور ، بل كان إلهاً من آلهة الظلام والشر^(١) . وهو أعدى أعداء الثالوث الأقدس إيزيس وأوزيريس وحورس .

أما إيزيس - في هيئة هاتور - وهى الأم الكبرى وزوج حورس الأكبر فكانت تعبد في دندرة في معقل عبادة خصمها ست وهو في صورة التماسيح سبك^(٢) .

ولقد هيأت الطبيعة للإله ست أن يتعالى على آلهة النور ، فلم يكن للنور أن يتغلب على الظلمة ، ولا للنهار أن يتغلب على الليل ، وهذا الكسوف والخسوف واحقاق القمر كلها شواهد على غلبة ست . هذه كلها كانت هجمات من الإله ست ضد العين اليمنى (الشمس) والعين اليسرى (القمر) للإله حورس . وقد كان المصريون يسمونها معارك السماء (خنوم بت) وكان حورس وست يسميان «المتحاربين» وكان من طبيعة هذه المعارك وهذه الحرب ألا يتغلب فيها الواحد على الآخر بل هى سجال بينهما فيتعادلان فيها كما يتعادل الليل والنهار^(٣) . ولقد كانت هذه الحروب والمعارك موضوعاً محبباً فى الأدب الأسطوري المصري القديم . قال بلوتارخوس «يقول المصريون طبقاً لما يعتقدون ، إن طيفون (= ست) يضرب عين حورس مرة ومرة ينتزعها ويتلعبها ، وعندئذ يعطيها ثانية للشمس . وهم يرمزون بالضربة إلى احقاق القمر كل شهر وبالانتزاع يرمزون إلى خسوفه الذى تداويه الشمس بالإشراق عليه فور خروجها من ظل الأرض^(٤) .

(١) انظر Moret المصدر نفسه ص ٦٨ - ٦٩

(٢) المصدر السابق ص ١١٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٠

(٤) إيزيس وأوزيريس ، ٥٥

فإذا ما رجعنا إلى القصيدة الخامسة عشر ونظرنا إليها في هذا الضوء وجدنا أن المعركة قد قامت أثناء العيد ، يوم مد أهل دندرة الموائد أمام المعابد ، وقاموا يرقصون على أنغام المزمار ، وشربوا الخمر حتى ثملوا وتعطروا وكللوا رؤوسهم بالأزهار ، ثم حدث الهجوم من أهل أمبي أتباع ست ولكن الحرب بدت للشاهد الراوى كأنها من لعب الأطفال ، ثم استلت السيوف فهول أهل دندرة متراجعين أمام أهل أمبي أى رجع أتباع إيزيس أمام جحافل أتباع ست فهي أقرب إلى التمثيلات الدينية في ملابسها وظروفها كما تبدو من وراء الحجاب الكثيف الذى أسدلته عليها أغراض الدعاية ضد مصر والتيل من سكانها . قد يكون أحد أهل دندرة قد سقط فعلا على الأرض فوق تحت وطأه أقدام المهاجمين ، ويحتمل أن يكون هذا حلقة من حلقات التمثيلية وقد جاء في وصف المعركة « ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلعب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يظأونها » .

قال هيرودوت يصف تمثيلية دينية من هذا الطراز في بايريميس : « حينما تجنح الشمس للمغرب تنفرغ طائفة قليلة من الكهنة لتمثال الإله ، أما أكثر الكهنة فيقفون في مدخل المعبد ممسكين بعصى خشبية ، ويقف قبلهم رهط آخر من الرجال يوفون نذورهم وهم يزيدون على الألف عدداً ، ويمسكون بعصى خشبية مثل الآخرين ، أما تمثال الإله فيوضع في مقصورة صغيرة من الخشب المذهب وينقل في ليلة العيد إلى موضع مقدس آخر . أما الفئة القليلة التي كانت قد تركت للعناية بالتمثال فتجر مركبة ذات أربع عجلات فوقها المقصورة وقد وضع فيها تمثال الإله . ويحاول الكهنة الواقفون بمدخل المعبد أن يمنعوهم من الدخول فيخف الذين يوفون النذور لنجدة الإله ويضربونهم ، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم وهنا تحمى معركة العصي ، وتشج رؤوس ويبدولى أن الكثيرين يموتون بجراحهم ولو أن المصريين ينفون أن أحداً يموت من جرائها (١) » .

(١) كانت في شرق الدلتا ولعلها كانت جزءاً من تل القروما .

هذا وصف لمعركة ساقه هيرودوت^(١) قبل وصف يونانيس للمعركة بين دنلدرة ونبط بخمسة قرون أو تزيد ، كان المصريون « يقيمونها تكريماً للإله آريس^(٢) » فيما قالوا له . وقد استعملت فيها العصي وشجت رؤوس ، وسالت دماء وكان يبدو للغرباء أن ممن يشتركون فيها من يموت بجراحه ، ولكن المصريين وهم أخبر بدينهم وطقوسهم نفوا هذا الوهم أو حاولوا أن ينفوه من ذهن هيرودوت .

كل هذا يحملنا على القول بأن مارآه من روى الخبر ليونانيس لم يعد أن يكون تمثيلية دينية اشتركت فيها جماهير غفيرة كالتى اشتركت فى الحفلة الدينية التى وصفها هيرودوت « وهم يزيدون عن الألف عدداً » واستعملوا فيها الحجارة والسيوف والسهام ، كما استعمل أهل باپريميس العصي الخشبية ، ولعل من اشتركوا فى التمثيلية الدينية التى وصفها يونانيس كانوا يوفون بعض ما عليهم من ندور مثل إخوانهم الذين اشتركوا فى معركة باپريميس ، وشجت الرؤوس هنا كما شجت هناك ، وسالت الدماء هنا كما سالت هناك ، وخيل لهيرودوت أنه لا بد قد مات بعض من كانوا يوفون الندور بالاشتراك فى المعركة ولكن أهل البلاد طمأنوه ونفوا أن أحداً يموت من جرائها . أما يوتا ليس أطلق العنان لخياله بعد ما سمع من وصف المعركة فأثناها بما ظن هيرودوت من أن معركته لا بد منتهية إليه من موت بعض من اشتركوا فيها ، وقد حمله كرهه للمصريين ونفوره من ديانتهم وتوغل نفوذها فى روما على تصوير ما صور من أكلهم للحم المصرى الصريع .

وهيب لامل

(١) هيرودوت ٢ ، ٦٣

(٢) آريس يقابل الإله شو عند المصريين .